

إستراتيجية القراءة المزدوجة في الفكر العربي المعاصر

د/غضابنة الطاوس

قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة قسنطينة 2 - عبد الحميد مهري

Résumé

الملخص :

L'idée fondamentale de cette étude est de traiter en d'autres termes ; la critique de la critique. Bien que la double lecture critique est toujours n'a pas des visions claires dans la pensée contemporaine en général, et bien que il ne faut pas hésiter beaucoup d'intellectuels dans l'adoption. Le ciblage de la pensée arabe contemporaine est une tentative de se démarquer sur l'emploi de cette lecture.

الخلفية الفكرية التي تريد "إستراتيجية القراءة المزدوجة" الحديث عنها هو "القراءة النقدية المزدوجة" وبتعبير آخر "نقد النقد" و"النقد" قبلها. وإن كان "نقد النقد" من العملية النقدانية لا تزال غير واضحة الرؤى في الفكر المعاصر عموماً وعلى الرغم من ذلك لا يتردد الكثير من المفكرين في اعتمادها واستهداف الفكر العربي المعاصر هو من منطلق محاولة الوقوف على مدى توظيف هذه القراءة فيه.

مقدمة:

من منطلق الشبّه عَوْدَة الكلمة للنموذج الفلسفي من جديد، وعودة نوع من الاستنطاق له، بعد أن سكت، إما عند "تهافت الفلاسفة"، وإما بوفاة "تهافت التهافت". وهي عودة أكثر ما تجلت في سعي الخطاب العربي المعاصر إلى محاولة تفكيك خطابات الهيمنة بمختلف أشكالها، والعمل على زحزحتها من مواقعها والتي هي غالباً ما تكون مواقع إستراتيجية.

إلّا أنّه قد اصطدم في عملية التفكيك هذه بنوع من القراءة المزدوجة ولدتها في حقيقة الأمر محاولة الإجابة عن فرضيات المطالب الآتية: من أين يقرأ؟ وبما يقرأ؟ وما يقرأ؟ وكيف يقرأ؟ وهي فرضيات تطلب أمر قراءتها نوع من

الازدواجية في القراءة نلمسه من خلال تقابل التضاد؛ إما بين رؤى فكرية مختلفة، وإما داخل الرؤية الفكرية ذاتها. غير أنَّ المقصود في هذه المداخلة هو القراءة النقدية المزدوجة بشكل محدد.

وهو ما ستحاول هذه المداخلة معالجته من خلال وضمن قراءة لبعض النماذج الفكرية في الفكر العربي المعاصر كانت نموذجاً بالنسبة للإشكالية العامة المطروحة في هذه المداخلة وهي: كيف تأسست إستراتيجية القراءة النقدية المزدوجة في الفكر العربي المعاصر مُجسّدة في نماذج قراءات معيّنة ؟ وذلك من خلال وضمن عنصرين أساسيين تتخللهما أخرى فرعية على النحو الآتي:

أولاً: في إستراتيجية القراءة: في معنى الإستراتيجية: كلمة "إستراتيجية" كما اصطلح تعريبها عن الكلم الغربية (stratégie Strategy) ذات الاشتقاق اليوناني "Strategos" (ستراتيجوس) المركبة من كلمتين: (Stratos) وتعني جيش و (Agein) وتعني يقود. واستخدام المركبة اليونانية القديمة (Strategos) تعني قيادة الجيش. والقيادة تتطلب مهارة التدبير والتخطيط التنسيق بين العمليات العسكرية، وما يتصل بها من أجل الدفاع أو الردع.

ولكن وبمرور الأيام، وهجرة المفاهيم عبر الزمان والمكان من بيئة ثقافية إلى أخرى، ومن منظومة فكرية إلى أخرى، وتضخم المصطلحات وتراكمها، فإنّ الكلمة المُعرّبة لم تبق حبيسة المجال التداولي العسكري، إنّما استُعيّرت لتوظّف وبكثرة في سياقات مختلفة، سواء في الثقافة العربية أو غير العربية.

ولكنه توظيف أخذ بعموم المعنى للدلالة على الطرق التي يعتمد عليها الإنسان في ممارسته لأفعاله وفي إنجازاته لأعماله، والتي يصبو من وراءها إلى بلوغ غايات وتحقيق أهداف عن طريق الاستخدام الأمثل للإمكانات المتاحة والوسائل المتوفرة، وبالمرونة والسياسة في المعاملة، ما يُذكر هنا بكناية التشبيه ؛ أي "شعرة مُعاوية بن أبي سفيان"، وهو ما يعكس إستراتيجية التعامل التي بإمكانها فتح آفاق التواصل والتفاعل مع الذات أو مع الآخر.

ولما كانت أعمال الإنسان وأفعاله تتنوع وتتميز بين اجتماعية وثقافية ولغوية، وغيرها من أصناف الأعمال والأفعال، فإن كلمة "الإستراتيجية" قد اختلفت تعاريفها وسياقات توظيفها اختلافاً متشعباً يفوق الحصر والضبط، فيمكن أن يتوخى المرء في العمل الواحد إستراتيجيات مختلفة، أو يتوخى إستراتيجية واحدة في أعمال متعددة، وإن دلّ هذا على شيء إنما على الأهمية والمكانة التي تتبوأها "الإستراتيجية" في حياة الأفراد والأمم⁽¹⁾.

وفي ماهية القراءة؛ فإن مادة (ق ر أ) في الاشتقاق اللغوي تدور في لسان العرب حول معنى الجمع والاجتماع، وهو مصدر للفعل قرأ. قال الراغب: القراءة: ضم الحروف، والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وقرأت الشيء قرأنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض. وفي غير العربية (الفرنسية والإنجليزية والألمانية: Lire/Lecture/ Reading/ to Read، Lesung/Lesen) فإنها لا تبتعد عن المعنى في العربية، إذ تظل تعني الجمع والتقريب بين الحروف والكلمات.

أما اصطلاحاً، فقد ظهرت محاولات نظرية عديدة لدراسة "كيفية القراءة" و"محتوى القراءة"، وللإلمام بها من خلال أبعادها الكثيرة⁽²⁾، وظهرت عنها مواقف متباينة وتيارات نقدية مختلفة كان أهمها: مدرسة كونستانس الألمانية ومدرسة التحليل الدلالي ومدرسة تحليل الرموز ونظريات القارئ الحقيقي⁽³⁾.

وتردد مصطلح "القراءة" وشاع في استعمالات المعاصرين العرب حتى صار من الصعب الإمساك بمفهومه، ذلك أن هذا المصطلح ((بات يشمل أي معطى كان، ويتصدر مفردات الخطاب المتعلقة بالفهم والتشخيص أو التقييم

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري؛ إستراتيجية الخطاب؛ دار الكتاب الجدد المتحدة؛ 2004م، ص 52. 53.

² - القراءة نشاط عصبي وفيزيائي، معرفي، عاطفي، حجاجي، رمزي، اجتماعي، تاريخي، ثقافي، لغوي، الخ. - حسن مصطفى سحلول؛ نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، ص 19.

³ - المرجع نفسه، ص 11.

والتقدير⁽⁴⁾). وأثر بعض الحداثيين العرب استعمال مصطلح "القراءة" تجاوزًا لبعض المصطلحات الفقهية⁽⁵⁾، وطرح هؤلاء مفاهيم بديلة خاصة فيما يتعلق بقراءة النص الديني⁽⁶⁾.

وارتبط مفهوم القراءة اصطلاحاً برسوم ماهوية؛ كتابة، خط، قارئ، نص، تفسير وتأويل، وغير. وهي رسوم متداخلة، متشابكة مع القراءة، من الصعب الفصل بينها، وبين معنى القراءة.

القراءة تبعاً للقارئ وثقافته ومواصفاته وتوجهاته الأيديولوجية وفلسفته في الحياة⁽⁷⁾، هي: ((إنطاق الذات بما هو مغيب في مجاهلها و أوازمها))⁽⁸⁾؛ أي أنه مفهوم يشمل كل قراءة من حول كل ما تنتجه القرائح، وخصوصاً ما له صلة بالإبداع المصنف في الدرجة الثانية مثل القراءة التي يقرؤها إعلامي(ما) تعليقاً

⁴. علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005م، ص9.

⁵. عبد المجيد الشرفي؛ في قراءة النص الديني، الدار التونسية للنشر (موافقات)، تونس، ط2، 1990م، ص94.

- محمد الطالبي؛ عيال الله، دار سراس للنشر، تونس، ط1992:1م، ص68.

- حسن حنفي؛ التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط4: 1412هـ/1992م، ص123-124.

⁶. لفظ "التحرر" بدل "الإسلام" / و"الخبرة بين الذوات" أو "التجربة المشتركة" بدل "الإجماع أو الاجتهاد"، "عقلي" بدل "شرعي"، و"الإنسان الكامل" بدل "الله" (1). وقراءة بدل الاجتهاد(2) / وبدل التفسير والتأويل(3). (1) - حسن حنفي؛ التراث والتجديد؛ ص116. (2) - محمد الطالبي؛ عيال الله، ص68. (3) - عبد المجيد الشرفي وآخرون؛ في قراءة النص الديني، ص94. مع تقديم التبرير لكل بديل قد تم طرحه حتى لا تُسيء قراءة أو فهم هؤلاء، فالانتقال من "الله" إلى "الإنسان الكامل" لأنه لفظ يُعبّر عن "علم التوحيد" و"علم التصوف" عند "حسن حنفي".

⁷. - أود نيس؛ الثابت والمتحول؛ دار الساقى، بيروت، ط7: 1994م، ج3، ص311.

⁸. - عبد المالك مرتاض؛ نظرية القراءة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، 2003م، ص28.

على خطاب⁽⁹⁾. أو قراءة لتقييم أداء اللاعب الجيد الذي يُحسن قراءة الموقف واستباق الأمور، إما بتوقع وجهة الرد من جانب خصمه، أو بمفاجأته بما هو غير مُتوقع من الردود والضربات، فهذا فإنّ مفردة القراءة تكتسح شاشة الرؤية⁽¹⁰⁾. وهكذا فإنّ مفهوم القراءة يتنزل أحياناً من القمة إلى الأسفل؛ أي من مستوى الخيال الخلاق والإبداع المِعطاء إلى كلام كثيرًا ما يتدنى إلى السوقيّة والابتذال⁽¹¹⁾. وهو ما يعني أنّ القراءة مستويات تابعة لمستوى القراء، وتعدّد مستويات القراءة هي قديمة قِدَم القراءة ذاتها⁽¹²⁾. ففعل القراءة فعل متعدد بالقوة، ومن أجل ذلك كلّهُ: ((نجنح إلى تعددية القراءة بتعدد الأشخاص، وتعدد الأهواء، وتعدد الثقافات، واختلاف الأزمان، وتباين الأمكنة، كما نجنح إلى تعددية هذه القراءات بالقياس إلى الأجناس الأخرى والفنون))⁽¹³⁾.

والقراءة تبعًا للقارئ والنص، ففي الجواب المشهور لـ"أبي تمام: لِمَ لا تَفْهَم ما يُقال؟ تُصبح دلالة القراءة هنا أن ليس هناك أمام القارئ شيء مُعطى، وأنّ عليه أن يكشف، هو بنفسه، ما ينطوي عليه هذا النص؛ أي أن القراءة تقود القارئ إلى أن يتمثّل النصّ في رؤيته الذاتية وألا يستخلص من العلاقة التي يقيمها مع النصّ معنىً وحسب ولكنه يستخلص كذلك منه "تعبيراً"⁽¹⁴⁾. ومنه يمكن القول أن هناك

⁹ - المرجع نفسه، ص15.

¹⁰ - علي حرب؛ "هكذا أقرأ ما بعد التفكيك"، ص10.

¹¹ - عبد المالك مرتاض؛ نظرية القراءة، ص15.

¹² - حسن مصطفى سحلول؛ نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، ص80.

¹³ - حبيب مونسي؛ نظريات القراءة في النقد المعاصر، دار الأديب، وهران، الجزائر، 2007م، ص28.

¹⁴ - إن المعنى يرتبط بفكّ رموز النصّ خلال عمليّة القراءة نفسها بينما "التعبير" هو أثر المعنى في

الحياة الواقعيّة وتجسّده في وعي القارئ وربّما في سلوكه.. حسن مصطفى سحلول؛ نظريات

القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، ص117.

من جهة فهماً بسيطاً للنصّ وأولياً وهناك من جهة أخرى ردّة فعل القارئ الخاصّة أمام ذلك الفهم.

ليس هذا الفهم الأولي، واستخلاص العلامات النصيّة التي يرمجُ النصُّ بفضلها كيفية قراءته إلّا مرحلة من مراحل التحليل، بل ينبغي بعدها اللجوء إلى بقية العلوم الإنسانيّة ونسألها أن تشرح لنا كيف يتمثّل كلّ قارئٍ هذا الجزء العائم من جبل القراءة الذي يضرب جذوره في قرارة المجتمع البشري⁽¹⁵⁾. القارئ بهذا المعنى يخلق النصّ، أنّه خلاق آخر يواكب خلاق النصّ الأول. وقد يفقد القارئ شيئاً من ذاته وربّما يفقدها كاملةً بقدر ما يتبّنى شيئاً من حديث النصّ، ذلك أن استبطان الآخر وتمثّله الذي تقوم عليه القراءة وتنشئه ليس بالضرورة القاطعة أمراً حسناً ولا إيجابياً دائماً⁽¹⁶⁾.

وتبعاً لتعدد القراءة بتعدد القراء، تعددت مناهج القراءة النقدية تبعاً لتعدد المنطلقات النظرية التي تنطوي على مجموعة من التيارات والاتجاهات النقدية، وتبعاً لذلك انطوي نقد استجابة القارئ من جهته على استثمار مجموعة من المصطلحات في الإشارة إليه⁽¹⁷⁾، وسواء أكانت القراءة دمج وعينا بمجرى النص أو هي دخول وعي النص على مجرى وعينا، فإنّها في كل الأحوال تعني

¹⁵ - حسن مصطفى سحلول ؛ نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، ص117.

¹⁶ - حسن مصطفى سحلول ؛ نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، ص117.

¹⁷ - تشمل تلك التيارات النقدية: النقد الجديد، والبنويّة، والظاهرانية، والتحليل النفسي، والتفكيكية. فهناك القارئ الصوري، والقارئ الضمني، والقارئ الافتراضي، والقارئ الحقيقي، والقارئ المثالي، والقارئ الفائق، والقارئ المؤهل، والقارئ الميتا نقدي كما يُضيف "باقر جاسم محمد".

- باقر جاسم محمد؛ نقد النقد أم الميتانقد، مجلة عالم الفكر، العدد3، مجلد:37، السنة: 2009م، مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، ص114.

تفاعلاً بين وعين هما: وعي النص ووعي القارئ. وهذا الفهم لكيمياء القراءة يعني أن ناتج هذا التفاعل هو دائماً شيء مختلف تماماً عن مُكوّناته الأولى⁽¹⁸⁾.

كل قراءة عبارة عن فكر يتعامل مع نص، فالنص واحد ولكن الأفكار متعددة، وهكذا لا مفرّ من تعدد القراءات، بتعدد الأفكار، وذلك في كل ميادين القراءات سواء كانت النصوص دينية، أدبية، تاريخية فلسفية، وهلم جرا...⁽¹⁹⁾ ، فهي قراءات تختلف باختلاف المنهجيات، والتأثيرات، والتحليلات، والتصورات والثقافات، والمقاصد، والغايات⁽²⁰⁾.

ومن منطلق ذلك فإنّ الإستراتيجية التي يُحدّدها القارئ هي التي تُعيّن كيفية تعامله مع المقروء وترسم الحدود التي يقف عندها، وهكذا فإنّ النص يضع القارئ أمام إستراتيجيات متعددة⁽²¹⁾، منها أن يهتم القارئ بالمعنى الحرفي بالاعتماد على اللغة الطبيعية أو أن يعتبر النص لغة ثانية فنية تتّصف بتعدد القيم والقراءات. فقد يقف القارئ عند الإستراتيجية الأولى، وقد يتعدّها إلى الإستراتيجية الثانية التي تتوخى الكشف عن أبعاد النص وآلياته وكيفية اشتغال عناصره ودور كل عنصر⁽²²⁾، هذه الإستراتيجية الثانية هي قراءة ثانية أو قراءة مزدوجة انبثقت عن قراءة أولى.

وعليه فإنّ إستراتيجيات القراءة تتعدد بتعدد القراء والآليات والمناهج، وأحياناً تُستخدم كلمة "إستراتيجية" عوضاً عن "قراءة" أو "قراءات"، وما يُبرر الاختيار، بأن القراءة تتغير بتغير المقروء أولاً وتغيير الإستراتيجية الخاصة لكل

¹⁸ - المرجع نفسه، ص114.

¹⁹ - محمد الطالبي؛ عيال الله، ص 68.

²⁰ - محمد الطالبي؛ عيال الله، ص 68.

²¹ - التأويلية أو الهرميونيطيقا، منهج التحليل النفسي، التفكيك، الخ.

²² - محمد مفتاح؛ النص من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع "المدارس"، الدار البيضاء،

المملكة المغربية، ط2000:1م، ص84.

قارئ ووفقاً لمرجعياته وقدرته على إدراك علائق النص المقروء⁽²³⁾ أو الخطاب المسموع.

والقراءة تبعاً للكتابة: لماذا أقرأ؟ هذا السؤال الذي تفترض الكتابة طرحه⁽²⁴⁾، فالكتابة لا تُخاطب السامع عبر أذنه وإنما تطرح أمام الآخر، نصّاً يُشاهده ويتأمل فيه، والقارئ يدخل في النص ويتأمله. لا تخرج توقعات القارئ فيما يدخل النص عن ثلاثة:

- (1) يقرأ هذا النص ليُدركه بما عرفه، بشكل أو بآخر.
- (2) يقرأ هذا النص ليرى ما عرفه معروضاً بشكل جميل لا يقبل أن يعرضه في شكل مُماثل.
- (3) يقرأ هذا النص ليعرف ما لا يعرفه⁽²⁵⁾.

وبما أن الكتابة ليست محاكاة وانتلافاً، وإنما هي اختلاف وإبداع، فإن التوقعين الأولين يسقطان تلقائياً، لأن معرفة المعروف مسألة نافلة عدا أنّها تكرارية. ولهذا كان التوقع الثالث هو ما ينبغي أن نواجه به النص الكتابي. فالكتابة: صناعة روحانية تظهر بألة جثمانية دالة على المراد بتوسط نظمها⁽²⁶⁾، فتركيبها من مادتين وهما: اللفظ والخط. وأما آلتها فهي القلم⁽²⁷⁾. لقد كانت الكتابة مرتبطة، في بداية الثقافة الإنسانية بالخاصية المادية للإيماء

²³ - بسام قطوس؛ استراتيجيات القراءة، دار الكندي للنشر والتوزيع، أريد، الأردن، 1998م، ص 11.

²⁴ - أود نيس؛ الثابت والمتحول؛ دار الساقى، بيروت، ط 7: 1994م، ج 3، ص 301.

²⁵ - أود نيس؛ الثابت والمتحول؛ ج 3، ص 310.

²⁶ - علي بن خلف الكاتب؛ مواد البيان؛ تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، سوريا، ط 1: 1424هـ/ 2003م، ج 1، ص 36.

²⁷ - اللفظ يفضل الخط بأنه دليل طبيعي وآلته طبيعية، وهي اللسان. والخط دليل صناعي وآلته

صناعية، وهي القلم.. علي بن خلف الكاتب؛ مواد البيان، ج 1، ص 37.

والخط حتى انتظمت داخل التركيب السطري، وسيُعتبر الخط في أحسن الأحوال صورة بلاغية.

لكن "الخط" في الكتابة المعاصرة بلاغة هادية، تُفجر الليل اللغوي، بل إن الحركة الخطية تدفع بالليل اللغوي إلى ما هو أبعد من ذاته؛ أي إلى فضاء مرسوم لا يخضع إلى قوانين اللغة. ولهذا فإن الحرف المخطط ليس كلياً حرفاً، إنه بالأحرى شيء يتموضع بين الكتابة والموسيقى⁽²⁸⁾. بمعنى أن وظيفة "الخط" في القراءة المعاصرة أخذت دلالات ومعاني غير تلك التي كان يعنها في القديم. وهذا الاختلاف في الوظيفة والمعنى ليس بالمستحدث.

فقد وردت مفردة القراءة والتلاوة والكتابة الصحف والنسخ والقلم في القرآن الكريم، بصيغ مختلفة للدلالة على غير معنى، من ذلك: نسبة القراءة وتعليمها إلى الذات الإلهية فقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾⁽²⁹⁾، ﴿أَفْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾⁽¹⁾. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ⁽⁴⁾ ﴿وَبِمَعْنَى التَّلاوةِ وَالتَّرْتِيلِ وَالْوَحْيِ وَالْكِتَابِ فَقَالَ: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾⁽³¹⁾، ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾⁽³²⁾. فسعى عزَّ وجلَّ وحيه إلى رسله الكرام "كِتَابًا"، فقال: ﴿الْم﴾⁽¹⁾ ذَلِكَ الْكِتَابُ⁽²⁾ ﴿﴾⁽³³⁾.

²⁸ - وهي العلاقة المتقلبة التي أدركها "لفي شتراوس" بين الموسيقى والخط: مقدمة كتاب "النبيء المطبوع". - عبد الكبير الخطيبي؛ الاسم العربي الجريح؛ الاسم العربي الجريح، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، ط1: 2009م، ص67.

²⁹ - سورة الأعراف، الآية: 145.

³⁰ - سورة القلم، الآيتان: 1، 4.

³¹ - سورة الكهف، الآية: 27.

³² - سورة المزمل، الآية: 4.

³³ - سورة البقرة، الآيتان: 1، 2.

فالكُتابة تمام قوة النطق والمُبَلِّغُ به إلى أكمل غاياته⁽³⁴⁾ ولذلك جعلها (صلى الله عليه وسلم) عِقَالُ العلوم، فقال: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ»⁽³⁵⁾.
والقسم بالقلم فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾⁽³⁶⁾، وإلحاق القلم والخطّ بالقسم مُنْبِئٌ عن شرف رُتَبَةِ الْخَطِّ، وأَنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أَصُولِ مَنْافِعِ الْخَلْقِ، لأنَّ القسم لا يقع منه سُبْحَانَهُ إِلَّا بِشَرِيفٍ مَا أَبْدَعَ⁽³⁷⁾.
وفي مُسَمًّى الْكِتَابِ وَالْكِتَابِ فقال: ﴿وَالطُّورِ﴾⁽¹⁾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ⁽²⁾ فِي رَقٍّ مَنَشُورٍ⁽³⁾ (38). وسمى ملائكتَه كُتَّابًا، فقال: ﴿كَرَامَا كَاتِبِينَ﴾⁽³⁹⁾ وَعَظَمَ شَأْنَ الصَّحَفِ وَالْكَتَبِ فقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾⁽¹¹⁾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ⁽¹³⁾ (40)، ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽⁴¹⁾. وبمعنى العقود والمواثيق بين النَّاسِ، وغير ذلك من الدِّلَالَاتِ وَالْمَعَانِي والاستعمالات.

³⁴ - الوحي لم يُنزل كتابا، ولكنه لما أنزل كتابا أشار سبحانه إلى تمامه وغايته، لأن الأشياء إنما تُحَدُّ بِتَمَامِهَا وَغَايَتِهَا. والأشياء التي تَدُلُّ وَيُذَكِّرُ عَلَيْهَا أَرْبَعَةُ مَرَاتِبٍ: الْأَعْيَانُ الَّتِي تَقَعُ عَلَيْهَا الْأَسْمَاءُ/ صُورُهَا الَّتِي انْتَرَعَتْ عَنْهَا/ الْأَلْفَاظُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ/ الرُّسُومُ الَّتِي تُقَيِّدُ الْأَلْفَاظَ وَتَحْفَظُهَا (الخط والكتابة).. علي بن خلف الكاتب؛ مواد البيان؛ ص26.
³⁵ - الدِّرَامِي؛ سنن الدِّرَامِي، 1/123، تقييد العلم، 68، مطبعة الاعتدال، دمشق، 1349هـ/ 1971م.

³⁶ - سورة القلم، الآية: 1.

³⁷ - علي بن خلف الكاتب؛ مواد البيان؛ ص25.

³⁸ - سورة الطور، الآيات: 1، 2، 3.

³⁹ - سورة الانفطار، الآية: 11.

⁴⁰ - سورة عبس، الآيات: 11، 13.

⁴¹ - سورة الجاثية، الآية: 29.

والقراءة عند "عبد الكبير الخطيبي" تفسير نشيط⁽⁴²⁾، فهي فاعلية حيوية، وهي كتابة قلبية تعطي للنص بعداً إبداعياً متعدد الدلالة، بُعداً لا يتراجع عن ممارسة الكتابة كلعبة تخرج عن المنطق فيما هي داخله فيه، تُسائل الذات فيما هي تُقارب الموضوع. إنها الذات في مفهومها الأنطولوجي غير الميتافيزيقي الكاشفة لجرحها في عمق تأمل، وغنائية كتابة مأكرة يوشوش مرسومها، كما لو أن العالم يعلن عن تكوين جديد⁽⁴³⁾.

عند "الخطيبي" تنتفي صرامة الكتابة الأكاديمية الباردة، وتنهض كتابة جديدة لها صرامة البحث ودقة التحليل ممتزجتان بهجرة حرة بين مجالات التحليل والذات، وهي راقصة في حالات انجذاب ونشوة لهما أسماء الأرض الحسنى⁽⁴⁴⁾. وحين تتحول الكتابة إلى ما يمكن تسميته بـ "كتابة قلبية"⁽⁴⁵⁾ تجعل من ممارسة الكتابة لعبة: "تخرج على المنطق فيما هي داخله"⁽⁴⁶⁾.

والنقد أيضاً: كتابة، وهكذا، فإن ((ملازمة)) النص، ليس بالعينين، ولكن بالكتابة، تحفر بين النقد والقراءة وحافة المدلول. وذلك لأنه ما من أحد في العالم يعرف شيئاً عن المعنى الذي تُضيفه القراءة على العمل⁽⁴⁷⁾. وكم من كاتب لم يكتب إلا ليقرأ؟ وكم من ناقد لم يقرأ إلا ليكتب؟ فالنقد ليس إلا لحظة من هذا التاريخ الذي ندخل فيه، والذي يقودنا نحو الوحدة، ونحو حقيقة الكتابة⁽⁴⁸⁾.

⁴² - عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، ص 18.

⁴³ - عبد الكبير الخطيبي؛ الاسم العربي الجريح، ص 10.

⁴⁴ - عبد الكبير الخطيبي؛ الاسم العربي الجريح، ص 10.

⁴⁵ - محمد بنيس؛ ضمن: عبد الكبير الخطيبي؛ الاسم العربي الجريح، ص 9.

⁴⁶ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴⁷ - المرجع نفسه، ص 118.

⁴⁸ - المرجع نفسه، ص 119.

فالنقد عند "رولان بارث" كتابة ، وهو يقودنا نحو حقيقة الكتابة ، والناقد قارئ كاتب.

والنقد أيضاً: قراءة، ولكن قراءة عميقة، إن النقد يَشْطُرُ المعاني، ويأتي بلغة ثانية، فيجعلها تحوم فوق لغة العمل الأولى⁽⁴⁹⁾. لذا فقد وجب الفصل بين قراءة العمل ونقده: نلاحظ أنَّ الأول مُباشِرٌ، وأنَّ الثاني تتوسطه لغة وسيطة: هي الكتابة النقدية⁽⁵⁰⁾.

فالنقد يعطي الكلام المجرد (لغة)، ويعطي اللغة الأسطورية (كلاماً)، وهي لغة صنع العمل منها وعليها تقوم المعالجة العلمية. إن علاقة النقد بالعمل هي علاقة المعنى بالشكل ولا يستطيع الناقد أن يزعم أنه يترجم العمل، ولا يستطيع، خصوصاً، أن يجعله أكثر وضوحاً⁽⁵¹⁾.

ومن ثمة فإن القراءة النقدية هي زاوية رؤية الناقد في قراءته، والمحددة بعدة عوامل منها: رؤيته الاجتماعية ومنظوره الإيديولوجي، وأدوات معرفته النقدية المستخدمة في قراءة النص، وليس هناك نقد حتى النقد النظري، كاملاً بذاته مطلق المعايير والأحكام. وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يدل بهذا على الحقيقة النهائية ، وإنما يدل فقط على صورة جديدة هي نفسها مُعلَّقة⁽⁵²⁾.

بمعنى أنَّ هذه الصورة تظل موضوع قراءة مُتجددة باستمرار ولهذا لا يستطيع أن يزعم الناقد أو القارئ أنَّه وجد عمق العمل، وأنه من ((العقم أن

⁴⁹ - التشويه: هنا بمعنى التغيير، وذلك لأن العمل، من جهة أولى، لا يهب نفسه أبداً إلى انعكاس مجرد (فهو ليس شيئاً مرئياً كالتفاحة أو اللعبة). ومن جهة أخرى فإنَّ - التشويه - نفسه عملية تحويلية مراقبة.. رولان بارث؛ نقد وحقيقة، مركز الإنماء الحضاري، حلب سوريا، 1994م، ص102.

⁵⁰ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

⁵¹ - المرجع نفسه ، ص 101.

⁵² - رولان بارث؛ نقد وحقيقة ، ص 109.

يؤتي العمل إلى الوضوح الحز. وإذا صير الأمر إلى هذا، فلن يبقى فوراً ثمة ما يُقال. وبهذا تصبح وظيفة العمل إغلاق شفاه أولئك الذين يقرأونه. ولكن الأمر يكون أقل عبثاً بقليل عندما يبحث المرء في العمل عما يقوله العمل من غير أن يقوله. وكذلك أن يفترض أن للعمل سرّاً نهائياً، إذا ما أُكتشف فلن يكون هناك ما يمكن إضافته⁽⁵³⁾. فالناقد إذا التزم بقول شيء (وليس أي شيء)، فهذا يعني أنه يُعطي للكلام (كلام المؤلف وكلامه الخاص) وظيفة دالة⁽⁵⁴⁾.

بمعنى أنّ النّقد في حقيقة معناه الإيتمولوجي الأولي ليس إلّا قراءة لاحقة لسابق أو موازٍ، أو على مُحادّة ومُحاثة مع آخر، أو بين ثنائية حضور وغياب، إما فكرة أو سلوك، خطاب أو نص، موقف أو وضع معيّن، ومنه فما هو إلّا "قراءة ثانية"؛ أي أنّه قراءة مزدوجة بمعنى من المعاني، إذ ليس بالإمكان إلّا القراءة أولاً ثم النّقد ثانياً لينتج ثانياً فليس النّقد إذن غير قراءة مزدوجة؛ أي "إعادة إنتاج". وهو في هذه العملية لا يُمكنه إلّا أن يعتمد إستراتيجية معينة (بالأحاد أو بالتعدد).

فالنقد: لغة تتحدث عن لغة النص؛ أي لغة اللغة بتعبير المناطق. وقسم "رومان جاكبسون" اللغة إلى قسمين: ما وراء اللغة (Méta Langage)، واللغة الموضوع (Langue objet)، الأولى مجردة والثانية واقعية والنقد بحسبه هو ما وراء اللغة (ميتالغة) لأنه مقولة تتكلم عن مقولة أخرى. والنقد عند "رولان بارث" خطاب على خطاب (ميتا خطاب: Méta discours)، يقول: ((إنّ العلم موجود والكاتب يتكلم هذا هو الأدب. أما هدف النقد فمختلف جداً، فهو لا تعامل مع العالم، بل مع الصياغات اللغوية التي قام بها آخرون، إنّه خطاب على خطاب (a critique est a discours sur un discours)، إنه لغة ثانية أو لغة ماورائية كما يقول علماء المنطق⁽⁵⁵⁾.

⁵³ - المرجع نفسه، ص 110.

⁵⁴ - المرجع نفسه، ص 103.

⁵⁵ Rolin Barthes ; essais critiques ,éd seuil 1964,p : 255 .

الكلام على الكلام صعب، لأنَّ الكلام يدور على نفسه ويلتبس بعضه ببعض، ولهذا شق النحو وأشبه النحو بالمنطق⁽⁵⁶⁾؛ إنَّه اعتراف من "أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء" بصعوبة اللغة من حيث مستواها الثاني⁽⁵⁷⁾. وهي الصعوبة التي تواجه دراسة "نقد النقد" لدى النقاد المعاصرين إذ تطرح أكثر من سؤال حول المفهوم ومنهجية التعامل مع موضوع البحث فيها⁽⁵⁸⁾.

لم يصل "نقد النقد" إلى الحد الكافي في التنظير ولا سيما التطبيق. إذ لا تزال الجهود مستمرة من أجل محاولة إرساء القواعد العلمية لتأسيسه، فلا يزال قلق العبارة فيما يتعلق بالتسمية قائماً⁽⁵⁹⁾، ولا يزال الإشكال مطروحا عن مفهوم "نقد النقد" وموضوعه والالتباس بينه وبين الحقول المعرفية الأخرى خاصة النقد الأدبي الذي توسع من النقد إلى قراءة أخرى موجهة بدورها إلى هذا النقد. "نقد النقد" حديث الميلاد نسبياً⁽⁶⁰⁾؛ وقد راعت هذه التركيبة الإضافية اهتمام النقاد في المجال النقد الأدبي والباحثين في مناهج العلوم والإبيستمولوجيا.

⁵⁶ - أبو حيان التوحيدي؛ الإمتاع والمؤانسة، المكتبة المصرية، بيروت، ط1: 1953م، ص130-131.

⁵⁷ - فالمستوى الأول حسي ومعقول يمكن تناوله، أما المستوى الثاني وبالنظر إلى طبيعة موضوعه الصورية؛ أي قواعد صورية تتمثل في قواعد النحو التي هي منطق لسانی على ما يُسميها "أبو سليمان السجستاني" من خلال مقولته المشهورة: ((النحو منطق عربي والمنطق نحو عقلي)). - أبو حيان التوحيدي؛ المقابسات؛ تحق وشرح: حسن السندوي، المطبعة الرحمانية لصاحبها: عبد الرحمن موسى شريف، القاهرة، 1347هـ/1929م، ص169-170.

⁵⁸ - محمد مربي، نقد النقد، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المملكة المغربية، ص1.

⁵⁹ - إنَّ "نقد النقد" و"الميتانقد" و"الميتالغة" و"الميتاخطاب" و"لغة اللغة" و"اللغة الواصفة"، ليست إلا تسميات مختلفة والمسمى واحد؛ "نقد النقد".

⁶⁰ - أشار إليه "سيرج دوبروفسكي" (Serge Dobrovsky) في كتابه "لم النقد الجديد" سنة 1956م، ليظهر هذا المفهوم باصطلاح آخر هو "نقد الأفكار الأدبية" في كتاب "مارينو

وبالتالي تُحِلُّنا التركيبة الإضافية بشكل أساسي إلى طرح مفهوم "نقد النقد" (Criticism of criticism/ la critique de la critique). هذا الزوج المركب يتضح من خلال ما ذكره "ألسكندرسكو" (S.A.Lescandrescu) بأنَّ نقد النقد ((خطاباً ماورائياً يَرْتَهِن وجوده بوجود خطاب آخر))⁽⁶¹⁾، ما يعني أنَّ عِلَّة وجود "نقد النقد" هو وجود "النقد ذاته": أي يوجدان معاً، ويرتفعان معاً. ولأسباب علمية وجمة "باقر جاسم محمد" فإنَّ مصطلح الميتانقد له سمة اصطلاحية واضحة، فهو ليس مجرد إضافة لغوية لكلمة النقد إلى نفسها، ولكنه يُعَبِّر عن مستوى من الاشتغال المنهجي والمعرفي مختلف عن النقد. فإنَّ مصطلح الميتانقد يُعَبِّر عن كلام موضوعه "النقد". وهذا ما سيُساعد على فك التداخل والاشتباك بين "النقد" والحقل العلمي الجديد. فما هو من النقد ليس من الميتانقد وإنَّما هو موضوع قد يدرسه الميتانقد. يختلف الميتانقد عن "النقد" ليس في الموضوع الذي يدرسه فقط وإنَّما أيضاً لأنَّ الميتانقد أقل حرية في الجانب الذاتي من عملية القراءة، وأكثر نزوعاً نحو المنهجية⁽⁶²⁾.

أدريان "Marino Adrian" سنة 1977م، وسيظهر بعد ذلك في كتاب "جون إيف تاديي" (Jean Yves Tadié) وكتاب "تزيان تودوروف". إلا أن هذه الكتابات لم تتناول المفهوم على نحو تنظيري مستقل، وكان أهم من تناول ذلك هو "ألسكندرسكو" (S.A.Lescandrescu) في كتابه: "Discours d'interprétation". أما على المستوى العربي فقد جاء على سبيل الذكر عند؛ محمود العقاد، أمين الخولي، محمد غنيمي جلال. وعلى سبيل الدراسة عند عبد العزيز قلقيلة، باقر جاسم محمد، محمد مندور، جابر عصفور، محمد الدغمومي، الخ. لمزيد توضيح يمكن الرجوع إلى: - محمد مريني؛ نقد النقد، المرجع السابق. وباقر جاسم محمد؛ المرجع السابق.

⁶¹ - نقلاً عن؛ محمد مريني؛ نقد النقد، ص 1.

⁶² - باقر جاسم محمد؛ نقد النقد أم الميتانقد، ص 118.

وهو ما يطرح إشكالية التماهي والمفارقة بين "النقد" و"نقد النقد"، في هذا الإطار فإن هذين المجالين لا يمكن أن يتماها تماهيا مطلقا لا في الموضوع، ولا في الأسس المعرفية الفلسفية، ولا في الأدوات المنهجية والإجرائية، وفي الوقت نفسه، لا يمكن تصور فصل مطلق بينهما، وإنما يمكن أن تصور العلاقة في حدود التشبيه علم الفيزياء وموضوعه الذي هو الطبيعة⁽⁶³⁾.

ثانياً في الفكر العربي المعاصر: الجدير بالذكر أنَّ وظيفة النقد المعاصر في مجتمعاتنا العربية تمضي في نفس الاتجاه الذي بدأت به عند رواد النهضة العربية؛ أي باعتباره عملاً تثقيفياً تنويرياً يهدف إلى إشاعة الروح النقدي لأن ديناميكية التطور تركز على تشغيل الموقف النقدي⁽⁶⁴⁾. ولكن ما يُميّز نقد الآونة الأخيرة أنَّها تُضيف إليه توجهاً جديداً، وهو تحديد مفهوم وطبيعة توجهه العلمي. وكلما أصبح النقد علمياً، وتخلص من الفروض الأيديولوجية كان أكثر علمية وتوصلاً مع الفكر الإنساني. وثقافتنا العربية جديرة بأن تحتل موقعها في إنتاج المعرفة المعاصرة بالدخول في قلبها وإضافة إليها⁽⁶⁵⁾.

وتحديد الفكر العربي المعاصر هو من أجل محاولة الوقوف على مدى توظيف هذه القراءة فيه من منطلق أنَّ ساحة هذا الفكر قد اغتنت بالمحاكات النقدية المعاصرة خاصة تلك التي تعكسها المدارس الغربية الحديثة والمعاصرة (بنيوية وما بعد البنيوية والتفكيكية والحداثة إلى ما بعد الحداثة)، وتصادمت فيها ثنائيات التضاد مما أحدث نوعاً من الازدواجية في القراءة. ازدواجية تجلت في صراع تضاد اتخذ أشكالاً منذ القرون الوسطى؛ بين مدارس فلسفية (أشاعرة/معتزلة)، أصولية (متكلمين/فقهائ)، فقهية (حنابلة/مالكية حنفية/شافعية)، وفي الحديث والمعاصر، هو أيضاً خطاب أضداد:

⁶³ - نورث روب فراي؛ تشریح النقد، ترجمة: محمد عصفور، عمان، ط1: 1991م، ص13.

⁶⁴ - صلاح فضل؛ مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ميزيت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2002م، ص7.

⁶⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

السلفي/التقدمي، الأصولي/الحدائي القرآني/العلماني، الماركسي/الليبرالي، السني/الشيوعي، المنغلق/المنفتح، الدوغمائي/النقدي، وهو خطاب يعلن في بعضٍ منه تناقضه مع ذاته ومع الآخر كما يفتح في بعضٍ آخر منه أكثر من أفق للاختلاف والمغايرة بحثاً عن هويته عبر علاقة قلقٍ ومُرتبكةٍ بين الذات والآخر⁽⁶⁶⁾ المُختلف معه.

ومن ذلك كلّهُ ؛ فهو خطاب يقوم على ترسانة مفاهيمية مُتشعبة ، وثقل إبيستيمي ومنظومات مُتعددة الاتجاهات والموضوعات والمناهج والمجالات والمقامات والمواقف، ليس بالمُستطاع الخوض في كليّتها. ومنه اتخذت هذه الدراسة بالقراءة والتحليل قراءة معيّنة هي "القراءة النقدية المزدوجة " كما تُسمي ذاتها أو كما يُسميها غيرها، وهذا من خلال نماذج فكرية كانت أنموذجاً (paradigme) لتلك القراءة.

دعوى علمية الممارسة النقدية المزدوجة تجد تجسيدها في الازدواجية من حيث النظرية والتطبيق عند "محمد أركون" هذا ((الناقد المزدوج بامتياز))⁽⁶⁷⁾، من خلال وضمن مشروعه الفكري، وإن كان متعدد القراءات والإستراتيجيات، إذ قال : "كنت قد شرعت بهذا العمل شخصياً تحت عنوان مزدوج: "قراءات في القرآن" مع الإلحاح على فكرة التعددية في كلمة قراءات"⁽⁶⁸⁾.

إلا أنّ ازدواجية الطرح النظري والتطبيقي هو ما تعكسه "الإسلاميات التطبيقية"، وإن كانت ممارسة علمية متعددة التخصصات والإستراتيجيات. وفي

⁶⁶ - مصطفى خضر؛ التّقد والخطاب (محاولة قراءة نقدية عربية معاصرة)؛ منشورات اتحاد كتّاب العرب، دمشق، سوريا طبعة: 2001م، ص 12.

⁶⁷ - رشيد بوطيب؛ المفكر الجزائري محمد أركون: الناقد المزدوج، حقوق النشر: موقع قنطرة 2010 قنطرة <https://ar.qantara.de/.../trwht-lrhl-mhmd-rkwn-lslhy-ln> تاريخ الدخول؛ 16/12/2015.

⁶⁸ - محمد أركون ؛ الفكر الإسلامي (نقد واجتهاد): دار الساقى، بيروت ، ط3: 1998م، ص94

النقد التفكيكي لثنائيات الضد: المفكر فيه اللامفكر أو المستحيل التفكير، وفي تفكيك القطيعة المزدوجة ، في الفكر الإسلامي، وفي المركبة والهامش في التراث الإسلامي أو في الهيمنة الغربية، وفي التأسيس لعقلانية نقدية في مقابل العقلانية الدوغمائية، وفي الحدث القرآني أو الظاهرة القرآنية في مقابل الحدث الإسلامي أو الظاهرة الإسلامية، وفي دعوى تاريخية العقل الإسلامي في مقابل الاعتقاد بوجود عقل ثابت ومفارق للزمن وفوق التاريخ.

وليس بعيداً عن تعدد إستراتيجيات قراءة "محمد أركون" فإنَّ النقد بالمعنى الحديث عند "علي حرب" هو تفكيك لثنائية الزوج: فالنقد عنده ((لا يقوم على النقض والنفي، إنّما هو اجترّاح لإمكاناتٍ جديدة للتفكير أو للتعبير، للقول أو للعمل، يخرج بها المرء مخرجاً أكثر معرفة وصدقاً، وأكثر غنى وقوة في ممارسته لوجوده وتعامله مع ذاته ، أو في قراءته للتراث ، وللعالم وأحداثه))⁽⁶⁹⁾ ، والنقد سجال ((يرمي إلى تقييم العمل الفكري ، الموضوع موضع الفحص ، انطلاقاً من ثنائية الصدق والكذب أو الحق والباطل أو العقل واللاعقل))⁽⁷⁰⁾؛ فالنقد هنا حركة مزدوجة⁽⁷¹⁾ بين متقابلات ضدية ؛ إنّهُ نقد للذات وللغير، تفكيك لثنائية الضد بمعنى نقد مزدوج ، وهو ما يعترف به "علي حرب" قائلاً: ((هذا هو المشروع الذي أنخرط فيه إنّهُ مشروع نقدي مزدوج ، بمعنى أنّه نقد للذات وللغير، وهو مجابهة للآخر بقدر ما هو صنع للأنّاء))⁽⁷²⁾. وهذه الازدواجية هي بتعبير آخر "نقد النقد" الذي يصطلح "علي حرب" على تسميته "بقراءة القراءة".

⁶⁹ - علي حرب: الممنوع والممتنع، المركز الثقافي العربي ، بيروت، لبنان ط 1، 1995، ص 17.

⁷⁰ - علي حرب؛ الممنوع والممتنع ، ص 62.

⁷¹ - الحركة المزدوجة : تكون بنوع من اللّي الغريب للخطاب، والمكر والدهاء عبر إتيان منطق

الآخر والإطاحة بمفهوماته، ومن ثم إرجاعها ضده. جاك دريدا؛ الكتابة والاختلاف، ص 29.

⁷² - المصدر نفسه: الصفحة نفسها

وهي قراءةٌ تنسج حول قراءة أخرى تسبقها، تصفها، تحللها وتدرسها، وتبلورها وتستضيئها وتبث فيها روحاً جديدة ، فلا أن تكون القراءة ((قراءة من تشبيه أكانت شرحاً أم تفسيراً أم تأويلاً ، وسواء اختص الأمر بقراءة العالم ، أو قراءة النصوص ، أي كانت القراءة))⁽⁷³⁾؛ أي أن "نقد النقد" قراءة لا منهيّة ومن ثمة فإنّها قراءة ذات لقواعد وأدوات المفهومية وذات غير إستراتيجية⁽⁷⁴⁾.

وإن كانت القراءة النقدية المزدوجة في حقيقة الأمر تجدّ تجسيدها بشكل مباشر عند "عبد الكبير الخطيبي" ويكفي دليلاً عنوانه كتابه "النقد المزدوج" الذي جاء نصاً نظرياً وتطبيقياً لما اصطلح على تسميته بالنقد المزدوج.

قبل الخوض في العملية النّقْدانية، يُنبّه "الخطيبي" إلى أنّ كلمة "نقد" تتضمن فكرة غالباً ما تكون منسية، وهي المتعلقة « بوجود أزمة». النقد كأزمة بالنسبة لنفسه، وفي الوقت ذاته بالنسبة للموضوع الذي يهتم به. وفي هذا المعنى يظل النقد مزدوجاً⁽⁷⁵⁾. ما يعني أن لفظ النقد مأخوذ هنا في معناه الاشتقائي في اللغة الفرنسية حيث يُحيل إلى الوضع في «أزمة»: critiquer ; c'est mettre en crise⁽⁷⁶⁾.

تتضح إستراتيجية القراءة الازدواجية للنقد على مستوى المفهوم من حيثيتين : الأولى : النقد كأزمة بالنسبة لنفسه؛ فإن عليه أن يبني ويؤسس ركائزه فيما هو يشغلها (لا كيفما اتفق)، وذلك من لبنة تأسيسه خطابها، منطقها ابيستمولوجيته، وفي كل جهازه الإستراتيجي في إطار المعرفة التي يُقدّمها، وبالقياس إلى الوضعية المجردة التي تُحدّد تاريخياً. يبدأ النقد انطلاقاً من ركائزه، بيد أن هذه الركائز لا يتم العثور عليها فقط في إطار المعرفة التي سبقته، بل في

⁷³ - علي حرب : نقد الحقيقة، لمركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ط 1، 1993، ص 8

⁷⁴ - علي حرب: نقد النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ط 2005، ص 4، ص 16، ص 20.

⁷⁵ - عبد الكبير الخطيبي؛ الباحث الناقد، تر: عبد الله راجع، مجلة الكرمل، العدد 11، 1984، ص 194.

⁷⁶ - Larousse : Grand Dictionnaire de la philosophie ; Sous la direction de Michel Blay ; CNRS Editions ; 2005 ; Montréal ; Québec ; p225— 226 .

إطار الحقيقة الواقعية التي هي كما يُجرى بها كل شخص حقيقة مُستعصية على البحث.

والثانية: النقد كأزمة بالنسبة للموضوع الذي يهتم به، في هذا المعنى أيضًا يكون النقد مزدوجاً: نقد لقانونه الداخلي، ونقد للقانون المجتمعي. ويكون أيضاً النقد مزدوج بطرح البدايات والنهايات وبالمقاصد.

بهذا الطرح (البدايات والنهايات وبالمقاصد) يكون النقد تفكيراً، وحين يكون كذلك فإنه يكون "هندسة للذهن": أي نوع من "طبوغرافية الذهن" تتألف من ثلاث حركات نقدية: نقد دائري، نقد خطي، نقد منظم. إنها ثلاث صور للهندسة إلى حد أن الفكر هو فقط "طبوغرافية للذهن" ⁽⁷⁷⁾. تكون صورة "الدائرة" الإغراء الأكثر استمرارية للفكر عندما يكون، وهو يعود بلا توقف، على نفسه يدور عليها، كبدايته، ونهايته. فالدائرية: بداية لا تنتهي حول ركانته، وحول بنيته الأم.

كل باحث يستطيع أن يعثر على "هندسة الذهن" هذه من خلال دراسات "الخطيبي" المنجزة بالمغرب فهو لم يبدأ بالحديث عن النقد الذي أنجزه في المغرب ⁽⁷⁸⁾، ولكن وصل إلى ذلك كما لو وصل إلى أرض ثانية، الأرض الأولى إنما هي أرض الفكر. الأرض الأولى: الفكر: النقد: هندسة ثلاثية / الأرض الثانية: المغرب:

⁷⁷ - النقد الدائري: يرغب في توحيد الكون والزمن دفعة واحدة/النقد الخطي: هذا الخط استمراراً، ديمومة، تطوراً وفي كل المجالات التي نريد /النقد المنتظم: هو بداية مطلقة، أفقه ليس مرمي نهاية أو مقصد. - لمزيد توضيح يمكن الرجوع إلى: عبد الكبير الخطيبي؛ الباحث الناقد، ترجمة: عبد الله راجع، المرجع السابق، ص 195.

⁷⁸ - إن المغرب كفكر لم يقدم على شكل هبة، إن المثقف الناقد يصطدم على الفور بمسألة بدايته، أو بداياته: من أين يبدأ؟ وإلى أين ينتهي؟ البدايات والنهايات والمقاصد تختلف من الباحث الناقد إلى الفقيه إلى الصوفي إلى المؤرخ الناقد. - لمزيد توضيح يمكن الرجوع إلى: عبد الكبير الخطيبي؛ الباحث الناقد، ص 196.

الموضوع: وهو متعدد: من خلال: ثلاثية(: موروثا وطنيا ، موروثا عربيا وإسلاميا ، وموروثا عالميا)أشدّ عناصر حضوره هو ما نسميه الغرب⁽⁷⁹⁾.

وحقّ يمكن تجاوز ذلك الاستعصاء فإن النقد باعتباره إستراتيجية، يمكنه أن يهتم: بالمجالات الثقافية، الأيديولوجية التي هي متساهل فيها من طرف المجتمع. وبالمجالات التي تُمكنه الازدواجية فيه من التحول لصالحه. وبالمجالات التي حين يُصبح فيها النقد غير مهضوم بالنسبة للقانون المجتمعي ينسلخ النقد عن هذا القانون ليبرئ المستقبل⁽⁸⁰⁾.

من منطلق هذه الرؤية لمفهوم للنقد ، طرح "الخطيبي" قراءةً فلسفية لنقد سماه "النقد المزدوج" تتمحور أساسياتها حول تفكيك النصوص والوقائع والموضوعات في كل المجالات التي نريد . إنه النقد الذي يعمل على تقويض وتفكيك كل وثوقية، و((كل اطمئنان يجد نفسه هنا محاكما ، يستقبله سؤال ما نطق به اللسان من قبل. فالنقد المزدوج : عملية تقويض وتفكيك للبداهيات الموثوق بها⁽⁸¹⁾.

وتأتي في مقدمة في تلك الوثوقيات مفهوم الوحدة، فيريد هذا التوجه النقدي المزدوج أن يخترق الحواجز، وأن يسأل الهوية والأصالة المزعومتين ، وأن يتدخل في براءتهما الوهمية، يخلخل سكونية المعرفة⁽⁸²⁾. وهو ما جاء بشكل واضح من خلال مستويين مزدوجين هما:

تفكيك مفهوم " الوحدة " على المستوى السيميولوجي: في هذا المستوى فإنّ النقد المزدوج يمتلك مجال تحليله من خلال مصطلح نقدي مركزي هو

⁷⁹ - عبد الكبير الخطيبي ؛ الباحث الناقد ، ص 196.

⁸⁰ - المرجع نفسه ، ص 197.

⁸¹ - محمد بنيس ؛ ضمن : عبد الكبير الخطيبي ؛ الاسم العربي الجريح ، ص 5 - 6.

⁸² - عبد الكبير الخطيبي ؛ الاسم العربي الجريح ، ص 9.

التداخل الدلالي⁽⁸³⁾ الذي يفترض العلاقة بين أنواع الأدلة وهي في هذا الكتاب الموسيقى والمكتوب والمرسوم، علاقة تحددها هجرة الدليل من مجال إلى آخر وصفة الإبداع في مقاربة الخطيبي تتجلى في قدرته على الانتقال مع الدليل الواحد بين المجالات المتعددة أي ما يمكن تسميته بالهجرة الثانية. التداخل الدلالي هو الانفتاح على انشباك العلائق بين الأدلة، ومحو كل فصل بينها ، ومن ثمة يتيسر لنا هدم مفهوم الدليل كوحدة ذرية أو سلطته على الأدلة الأخرى⁽⁸⁴⁾.

تفكيك مفهوم " الوحدة " على المستوى البنيوي : في هذا المستوى فإنَّ النقد المزدوج ينصب على العرب كما على الغرب ، فيرمي إلى تفكيك ثقل مفهوم الوحدة⁽⁸⁵⁾ ، وهو يهدف إلى تقويض اللاهوت والقضاء على الإيديولوجية التي تقول بالأصل والوحدة المطلقة⁽⁸⁶⁾.

وإنما ينبغي أن نفسح المجال لفكر التخلي عن الذاتية الحمقاء، لئتمسك بالاختلاف: الاختلاف الاجتماعي، الاختلاف الثقافي، الاختلاف السياسي، اختلاف

⁸³ - التداخل الدلالي: Intersémiotique : هذا المصطلح يرقى إلى مستوى المنهج ، وهو معروف عند رومان جاكسون " إلا أن الخطيبي يوسع استعماله بإبداع يكاد يكون معجزاً.

- عبد الكبير الخطيبي ؛ الاسم العربي الجريح ، ص 9.

⁸⁴ - عبد الكبير الخطيبي ؛ الاسم العربي الجريح ، ص 10.

⁸⁵ - إن هذا المفهوم ديني أكثر مما هو سياسي باعتباره انعكاساً لوحداية الله. لذا فهو ينتمي إلى الشرع أكثر مما ينتمي إلى علم السياسة كما أنه يقوم على قيم مشتركة، والقيم تتلاشى وتتحول وتنمحي، ومن ثمة فهي نقطة ضعف هشة وهو ما يقصد مغتاينا، كما أنَّ هذه الوحدة قد تصدعت وتمزقت بفعل الصراعات والتناقضات الداخلية.. عبد الكبير الخطيبي ؛ النقد المزدوج ، ص 8 وما بعدها.

⁸⁶ - عبد الكبير الخطيبي ؛ النقد المزدوج ، ص 9.

الوجود العربي⁽⁸⁷⁾. وليس الاختلاف بين هذه الاختلافات، ولا الفرق، نتيجة لجمعها، وإنما هو حركة نقد مزدوج دائم⁽⁸⁸⁾.

يُريد "الخطيبي" أن يُعيد النظر «في جميع الأزواج التي أقامتها الفلسفة، والتي تتغذى منها خطاباتنا لا لكي يرى فيها قضاء على التقابل، وإنما علامة على ضرورة، بحيث يظهر كل طرف من أطراف الزوج كمُخالف للآخر، ويبدو على أنه الآخر ذاته في إرجائه»⁽⁸⁹⁾. معنى ذلك أنَّ الانفتاح على الآخر لا يدخل فحسب ضمن نوع من الفضول المعرفي. فالغير لا يصبح آخر من تلقاء ذاته. فكما أنَّ الهويَّة يلزم اكتساحها وغزوها، فإنَّ الغير لا يصبح آخر إلاَّ إذا حُوِّل عن تحديداته المهيمنة. فمهمة النقد المزدوج هي مقاومة هذا التطابق الموهوم للكشف عن الهوية المتعددة، فهو ليس معارضة موقف بآخر، وليس موقفًا مُضادًا، بقدر ما هو القيام داخل الموقف لتفجيده وتقويضه.

فالنقد لا يقول «لا»، وإنما يقول «نعم»، لكن ليس للهويَّة والتطابق، وإنما للفروق والاختلافات. وليس الاختلاف بين هذه الاختلافات، والفرق، نتيجة لجمعها، وإنما هو حركة نقد مزدوج دائم⁽⁹⁰⁾. فبما نحن عالما ثالثا ليس علينا أن نسلك إلا مسلكا ثالثا ليس هو مسلک العقل ولا مسلک اللاعقل كما فكر فيهما

⁸⁷ - اختلاف الوجود العربي، لا من حيث هو وجود تغلفه أيديولوجية الكليَّة والوحدة. بل على أنه وجود يتجاوز التراثية والسلفية آخذًا بعين الاعتبار مسألة العلم والتقنية. - عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، ص10.

⁸⁸ - عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، ص10.

⁸⁹ - وهذا على غرار ما قام به "جاك دريدا".- عبد الكبير الخطيبي؛ نحو فكر مغاير ترجمة وتقدم: عبد السلام بنعبد العالي، الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، كتاب الدوحة: مايو 2013م، ص12.

⁹⁰ - عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، ص10.

الغرب، وإنما خلخلة مزدوجة تقول: « بفكر متعدد لا يختزل الآخرين (أفرادًا وجماعات) ولا يضمهم إلى دائرة اكتفائه الذاتي »⁽⁹¹⁾.

وما يؤخذ على المعرفة العربية الراهنة على ما يرى "الخطيبي" كونها ظلت على هامش المنظومة المعرفية الغربية ، وأنها لا توجد داخل تلك المنظومة بما أنها تابعة لها محددة بها ولا خارجها لأنها لا تعمل فكرها في الخارج الذي يؤسسها والفكر المغاير هو ابتداء هامش جديد لا يكون هامشاً أعمى تابعاً للمركزية الأوروبية⁽⁹²⁾. إن المعرفة العربية لا تستطيع أن تتنصل من أسسها اللاهوتية و التيقراطية إلا بفضل قطيعة لن تكون كذلك ما لم تكن مزدوجة « لتقابل المنظومة المعرفية الغربية بخارجها اللامفكر فيه ، وتعمل في الوقت ذاته على تجذير الهامش ، والاتجاه نحو فكر مغاير »⁽⁹³⁾.

وعندما يتحدث "الخطيبي" عن مواجهة بين الميتافيزيقا الغربية ونظيرتها الإسلامية، فإنه يرى ألا ينبغي أن ننتظر دراسة لأقطاب الفلسفة الأولى⁽⁹⁴⁾، وإنما لا بد للنقد المزدوج أن يكون من جهة حوارًا مع أكثر أنواع الفكر، تلك الأنواع التي هزت الغرب، وما زالت تهزّه. ومن جهة أخرى أن يكون قراءة سيميولوجية للخط العربي والفرن الإسلامي والوشم وكتابة أدبية تطرق المسائل والموضوعات التي غلفتها الميتافيزيقا بغلافها وقيودها⁽⁹⁵⁾.

⁹¹ - عبد الكبير الخطيبي ؛ نحو فكر مغاير، ص12.

⁹² - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

⁹³ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

⁹⁴ - السياق العام كانت تُهيم عليه فلسفتان هما : الوجودية ، في صورتها عند "سارتر" ، والماركسية التي كانت قد أخذت تُعيد النظر في بعض مقدماتها ، خصوصًا على يد "التوسير".

- عبد الكبير الخطيبي ؛ نحو فكر مغاير، ص15.

⁹⁵ - يلتقي بالقدس ليس كموضوع متعال، وإنما كحضور في الفن، يلتقي بمسألة الاختلاف الجنسي حيث تتخذ المرأة موقعها بين الإلهي والبشري، ضمن تدرج المرئي واللامرئي، فهي «

فالنقد المزدوج يُقَوِّضُ أسس السيادة، ويُعيد النظر في أصوله وأسس، ولا تعني ازدواجية هنا أنَّ النقد ينصب على الميتافيزيقا الغربية ثم نظيرتها الإسلامية. إنَّه ، على العكس من ذلك يتخذ طريقه بين هذه وتلك ، وهو ، كما يقول صاحبه: «مُجَاهِة بين الميتافيزيقا الغربية والميتافيزيقا الإسلامية»⁽⁹⁶⁾. وهذا لأن تفكيك الأرضية اللاهوتية سابق على كل نقد، لأنه ينزل من السماء إلى الأرض⁽⁹⁷⁾. واستلهاً من هذا المناخ النظري حاول "الخطيبي" أن يفتح الحقل الثقافي المغربي على الخصوص والعربي بصفة أعم ، على تصورات نظرية جديدة ، وينهل من معين الاستيمولوجيا والسيمياثيات وفكر الاختلاف ، ليصهر كل هذه المباحث في مقاربة خاصة تتسم بالتعدد النظري ضدَّاً على أحادية المنهج التي كانت تطبع الفكر العربي وقتئذ ، وتحزراً من كل دوغمائية ، بما فيها تلك التي كانت تطبع بعض النزعات الماركسية الغربية والعربية⁽⁹⁸⁾. ما يعني ألا تنحصر أدوات التحليل في منهج بعينه، وإنَّما يتخذ النقد المزدوج إستراتيجية متعددة الأبعاد⁽⁹⁹⁾. وعلى الرَّغم من أنَّ "الخطيبي" يصف إستراتيجيته بأنها «مادية النزعة وأنها لا بد وأن تدخل ضمن الصراع الطبقي. إذ أن كل خطاب هو، بمعنى قوي، عنف طبقي»، إلا أنه لم يكن لينغلق داخل العقيدة الماركسية. فسرعان ما أخذ يسلط

مرئي لا مرئي وتخطيط للنظام اللاهوتي»، يلتقي بالتصوف حيث ينبجس اللامرئي في المرئي، يلتقي باللغة «ليس كهوية متوحشة ، وإنما في تجربة ازدواجية كمجال لفعل الاختلاف ، حيث تتفاعل اللغات»، يلتقي بالخيال الإسلامي، ليرصد القوانين المتحركة فيه، ويلتقي أخيراً بالثقافة الشعبية ليهدم الحاجز بين المكتوب والشفوي، بين الاجتماعي والذهني.

- عبد الكبير الخطيبي ؛ نحو فكر مغاير، ص15.

⁹⁶ - عبد الكبير الخطيبي ؛ نحو فكر مغاير ، ص 11 - 12.

⁹⁷ - عبد الكبير الخطيبي ؛ الاسم العربي الجريح ، ص9.

⁹⁸ - عبد الكبير الخطيبي ؛ نحو فكر مغاير، ص15.

⁹⁹ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

عليها سلاح النقد الذي طالما رفعته هي ذاتها شعارًا عبر تحولها التاريخي⁽¹⁰⁰⁾. ما يعني ألا تنحصر أدوات التحليل في منهج بعينه، وإنما يتخذ النقد المزدوج إستراتيجية متعددة الأبعاد⁽¹⁰¹⁾.

خاتمة: أهم ما يمكن أن نصل إليه مما تقدم:

- 1- أنّ مفردة القراءة اجتاحت ساحة الفكر العربي المعاصر، واتسع مجال تداولها. فتعددت إستراتيجياتها تبعًا لذلك، ولتعدد القراء.
- 2- أنّ القراءة المزدوجة ، وإن ظهرت في صور مختلفة في الفكر العربي المعاصر، فإنّ القراءة المزدوجة بمعنى "نقد النقد" أو "النقد المزدوج" قد وجدت تجسيدها النظري والتطبيقي عند "الخطيبي".

¹⁰⁰ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

¹⁰¹ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.